لمحة عن شعر

سعيد حيتانة

يمثّل الأدب بمفهومه الواسع تعبيرا عن الإرهاصات المختلفة الّتي يزخر بها المجتمع في كلّ عصر ومصر وقد سجّل ابن خلدون التّأثير الاجتماعي على اللّغة وفنون الأدب وذلك في- المقدّمة - ضمن الفصل الخاص بعلوم اللّسان حيث رأى أنّ اللّغة تتأثّر بما جاورها من ذلك أنّ عربيّة قريش ليست هي ذاتها عربيّة مُضر ولاحظ كذلك أنّ لغة (أي لهجة )أهل المشرق تختلف بعض الشّيء عن لغة أهل المغرب وكذلك لغة أهل المغرب تختلف عن أهل الأندلس لأنّ أولئك كما- أورد -خالطهم الفُرس والعجم وهؤلاء خالطهم البربر والإفرنج

ولابن خلدون فصل آخر على قدر كبير من الأهمّية ألا وهو فصل في تفسير الذّوق الّذي يحصل عند حذق أساليب العرب بالتّعلّم والممارسة والمدارسة والاعتياد والتّكرار دون النّظر الى أصل المرء كما حصل لدى سيبويه والزّمخشري اللّذين صارا من أيمّة العربيّة رغم عجمتهما وعندما يستعرض ابن خلدون تعريف الشّعر من لدن العروضيّين في قولهم (إنّه الكلام الموزون المقفّى )فإنّه لا يطمئنّ الى هذا التّعريف بل يدعو الى ضرورة النّظر في الشّعر من جهات أخرى مثل البلاغة والوزن والاستعارة والأوصاف وغيرها ويخلص إلى تعريف أوسع وأشمل يتمثّل في قوله: انّ الشّعر هو الكلام البليغ المبنيّ على الاستعارة والأوصاف المفصّل بأجزاء متّفقة في الوزن والرّويّ

إذن قد تجاوز ابن خلدون بوضوح مقولة (الموزون المقفّى )

وإضافة الى هذا الرّأي الجريء والمخالف المتحدّي للرّأي السّائد في الشّعر اقترح تعريفا بديلا شاملا يؤكّد فيه على الأسلوب والصّياغة دون أن يهمل أهمّية المبنى والمعنى ثمّ يطبّق نظريّته تلك على أعلام الشّعر العربي فيخلص الى أنّ الكثير منه ليس إلّا نظما ولم يستثن حتّى المتنبّي والمعرّي من ذلك بل نراه يضيف رأيا غريبا آخر يتمثّل في نظرته الى أنّ كلام الإسلاميّيين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليّين في منظومهم ومنثورهم ويضرب على ذلك مثال حسّان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ويفسّر ذلك -بأنّ هؤلاء قد سمعوا الطّبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما -

ويزيد هذا الرّأي الجريء صراحة وبيانا فيقول بلا لبس : -وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهليّة –

وهو بذلك يخالف السّائد لدى اللّغويّين والمفسّرين والأدباء أنّ كلام الجاهليّين يعتبر المرجع في اللّغة العربيّة وهو الفيصل المبين لدى مفسّري القرآن

يتوضّح لنا حينئذ أنّ رأي ابن خلدون في الشّعر واللّغة لم يُسلّم فيهما بالتّقليد وإنما نظر اليهما نظرة نقديّة مخالفة بل معاكسة للسّائد والمتّفق عليه وتبدو جرأته النّقدية ونظرته الاِستشرافيّة من ناحية أخرى عندما دوّن بعض النّماذج من قصائد كانت رائجة في عصره من المشرق والمغرب فسجّل شعر الهلاليّين ومعاصريهم وكذلك فصّل القول في شعر الموشّحات تفصيلا ضمن مقولاته في اللّغة تلك الّتي تتأثّر بوضوح بحركة الواقع المُعاش في المجتمع وبتطوّراته المختلفة

هنا تبرز مواقف ابن خلدون النّقديّة الثّاقبة في اللّغة والشّعر تلك الّتي تمتاز بالجرأة على ما ترسّخ من النّظريات القديمة لذلك فإنّ بعض فصول المقدّمة تعتبر أحد المداخل الأساسيّة كي نعيد الاعتبار للأدب الشّعبيّ لننظر اليه ضمن مدوّنة الأدب العربي الشّاملة سواء في هذه البلاد أو تلك أو في هذا العصر أو ذاك ونزيح عنه الغبن التّاريخي بما يعنيه من تهميش واِستنقاص

في هذا السياق إذن تتنزّل هذه المقاربة للشّاعر سعيد حيتانة الّذي كان أحد الّذين تأثّرت بهم في مسيرتي الشّعرية حيث كان عمّي من المعجبين به وكنت كثيرا ما أصاحبه لحضور حفلات الأعراس الّتي كان الشّاعر سعيد حيتانة يفتتحها بصوته الجهوري الصّادح وهو يصول ويجول وسط المحفل فيشدّ اليه الاِهتمام ولا يحجب صوته إلّا قرع الطّبول

لقد مثّل الشّاعر سعيد حيتانة طورا مُهمّا من تاريخ الشعر الشعبي فقصائده واكبت أغلب التّحوّلات الاِجتماعية والسّياسيّة تلك التّحوّلات الّتي لا نجدها بصفة واضحة أو غائبة أحيانا في نصوص الأدب الفصيح غير أنّ الشعر الشّعبي قد عبّر عنها بصدق وشجاعة مثل قصيدة الشّاعر علي بن عبد اللّه القصري الّتي أوردها الباحث علي سعيدان ضمن مجموعة من القصائد في أخبار المقاومة الشّعبيّة للاِحتلال الفرنسي وهي شهادة دقيقة وصادقة على الأوضاع الاجتماعيّة والسّياسيّة بما فيها من فقر وظلم وهي صورة واضحة عن الحالة المتدهورة الّتي كانت سائدة على البلاد والعباد في أواخر القرن التّاسع عشر بتونس وقد زادت نكبة الاِحتلال الفرنسي من معاناة الناس حيث يقول الشاعر علي بن عبد الله القصري :

الباي حكمه جار \* من شورنا وطّى نظر العين

سيّب علينا نار\* سامور يشعل لا بقاش يهين

اعطى الوطن للكفّار\* الاسلام تحت الذّل مغبونين

كبس كبس بالزيّار \* نتقلبو ع الجمر مقليّين

احنا قوتنا مرار \*الواحد غرق لرقبتو بالدّين

احنا سيدنا ضرّ الاسلام\* وكثّر علينا المطالب

فينا حفت روس الاقلام \* كليوم تسمع غرايب

ضاموه عباد الاسلام\* بالكفر والدّين حارب

كيف من رحل كيف من قام \* تفك رزقنا راح طايب

دعوات من ناس قدّام \* والاخرة شومة عقايب

كمثل هذا المنوال كان الشّعر الشّعبي على مدى تلك العهود المتتالية صدى للحركة الوطنيّة في مختلف أطوارها مسجّلا الوقائع والملابسات والتّطوّرات المختلفة الّتي عرفتها البلاد فقد دوّن لنا الشّعر الشّعبي أغلب الأحداث الهامّة من بينها موقعة الجلّاز 1911 ومن بين تلك القصائد القصيدة الّتي تتغنّى بالشّهداء الّذين أعدمتهم السّلطات الفرنسيّة بالمقصلة الّتي جلبتها من فرنسا لترهيب الشّعب التّونسي ومن بين أولئك الشّهداء الشّاذلي القطاري ومحمّد المنّوبي الجرجار الّذي قيل إنّه كتب قصيدة على جدار زنزانته يصف فيها التّعذيب الّذي لقيه على يد جلّاديه وصارت تلك القصيدة أغنية شعبيّة شهيرة مطلعها :

برّا وايجا ما ترد أخبار ع الجرجار

يا عالم لسرار صبري للّه

ومن تلك الأغاني الشّعبية الذّائعة الصّيت أغنية الدّغباجي

الخمسة الّي لحقو بالجرّة وملك الموت يراجي

لحقو مولى العلكة المرّة مشهور الدّغباجي

في هذا السّياق التّاريخي نشأ جيل من الشّعراء الشّعبيّين بعد الحرب العالميّة الأولى فاتحا أعينه على الاِستعمار الفرنسي الّذي سيطر على البلاد فعبّر أغلبهم عن حركة الإصلاح الاجتماعي الشّامل وانخرطوا إلى جانب ذلك في نشاط الحركة الوطنية بجميع المدن والقرى والأرياف ومنهم الشّاعر سعيد حيتانة فكانوا لسان حالها ووسائل إعلامها في عهد وفي مناطق لا وسائل سمعية بصرية سائدة لديها إضافة الى اِنتشار الأمّية وسيادة الأفكار والمقولات والأفكار التي لا تساعد على التحرّر والاِنعتاق من براثن الجهل والتّخلّف والاستعمار فكان دور الشّاعر الشّعبي في كثير من الأحيان وفي كثير من المناطق دور المثقف الملتزم الطّلائعي الّذي يؤثّر بوضوح في محيطه

من بين القصائد الّتي تندرج ضمن الإصلاح الاجتماعي قصيدة قالها سنة 1967بملتقى الشّعراء الشّعبيّين بمدينة باجة ويقول فيها :

هذا الشّعب لو كان الكلام يذوقه \* دّل مناهج فكره وخلوقه

هذا الشّعب يا فهّامة \* انسدت أخلاقه وفكره ونظامه

ويا لندرا كيفاش عقب أيّامه \* والدّهر لازم يختله ويعوقه

وقد صوّر فيها منتقدا بعض المظاهر الجديدة الّتي عرفها المجتمع التّونسي بعد الاِستقلال وما طرأ عليه من تحوّلات جذريّة على مستوى العلاقات داخل العائلة على مستوى القرية والمدينة وما شهدتاه من ظهور سيادة الفئات الجديدة على حساب تراجع سلطات الفئات القديمة وكذلك على مستوى العادات والتّقاليد والسّلوك وحتّى على مستوى اللّباس والمظهر وذلك بسبب تأثير وسائل الإعلام الدّاخلية والخارجية ونرى الشّاعر في آخر القصيدة يوصي بالتّمعّن في التّجارب الماضية لأخذ العبرة مع ضرورة التّحلّي بالصّبر وترك الزّمن يفعل فعله حيث يقول :

هذا الشّعب ليه وصاية \* كل شي يوفى تقعد ليه حكاية

وكثر التّجارب يوصّلك للغاية \* وكل نفس ديم ناقصة محقوقة

وكل شي عند بدي فيه نهاية \* والصّبر باهي لو قدرت نذوقه

ويختتم الشّاعر سعيد حيتانة قصيدته بالإمضاء فيذكر اِسمه ولقبه على طريقة السّنّة الشّعريّة التّقليدية في آخر القصائد الشّعبيّة وكأنّه بذلك يبصم بالقول أنّه الشّاعر الفحل الّذي لا يضاهيه شاعر آخر شاعريّة وابداعا بما له من ابتكارات لم يسبق اليها حيث يعلن مفتخرا :

أنا سعيد حيتانة قليل عباره \* جيب معاني مسكرة مغلوقة

وبالإضافة الى ثراء المدوّنة الشّعريّة للشّاعر سعيد حيتانة بالمواضيع الوطنيّة والاجتماعيّة على مدى سنوات متوالية ممّا يجعل من تلك القصائد مراجع تاريخية واٍجتماعيّة مهمّة وهي المدوّنة ثريّة أيضا بالقصائد الذّاتية الّتي عبّر فيها الشّاعر عمّا يختلج في وجدانه من شجون ومن بين تلك القصائد الوجدانية مقطوعة قالها سنة 1969بمناسبة رحيل زوجته ..قال :

واللّه الموت هزهالي \* الموت هزّت العزيز الغالي

الموت هزّت راحتي من بالي \* خلّاتني بوجيعتي نتلوّى

رافع يديّ للسما للعالي \* اجعل شرابي الصّبر بيه نتلوّى

والمقطوعة على إيجازها فيها إشارات خفيّة على أنّ المقصود زوجته خاصّة وأنّ الكلام ورد على صيغة المؤنّث وفي الأبيات تضمين معنى قوله تعالى-

ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعلنا بينكم مودّة ورحمة

ومن روائع قصائد الشّاعر سعيد حيتانة قصيدة أعتبرها من أهمّ قصائده لأنّها نسيج وحدها من حيث طرافة الموضوع وجرأته ومواكبته للواقع الاجتماعي من ناحية ومن ناحية أخرى لأنّها تعبير عن حالة وجدانيّة حميميّة جدّا ليس من السّهل التّصريح بها ألا وهي تلك الخيبة الّتي يجدها بعض الآباء والأمّهات من أبنائهم عندما يبلغون سنّا متقدّمة ويكونون في أمسّ الحاجة إلى عطفهم ورفقتهم ولعلّ ذلك راجع الى عدّة عوامل كالنّزوح والهجرة والتّطوّر الاجتماعي والتّشتّت العائلي وغلبة الشّعور بالأنانيّة والفردانيّة جميعها لا تبرّر ضرورة الإحسان الى الوالدين حيث يقول الشّاعر في لوعة وأسى :

لولاد فرّوا كلهم خلّونا

وعزّوا عليهم اولادهم ونسونا

لولاد نتمنّاهم

يشوفو التّالي ويعرفو مبداهم

آشكون جابهم وآشكون من ربّاهم

واشكون من عض الحجر بسنونا

واليوم جمل تلفو باباهم

بلا موت على قيد الحياة دفنونا

والقصيدة عبارة عن الشّكوى مع العتاب بالإضافة إلى النّقد مع الرّثاء الذّاتي وفي صور موحية وإشارات بليغة على هذا النّحو :

بلا موت قبلوا عزانا

بلا موت داروا فرقنا وعشانا

وانا مثيلي راقد الجبّانا

حتّى تجي مناسبة يزورونا

فهي تصوّر بوضوح تدهور العلاقات داخل الأسرة بل تناولت أشدّ وأوثق العلاقات على الاطلاق ألا وهي علاقة الوالدين بالأبناء حيث كما وصف الشّاعر قد آلت إلى حالة متدنّية توصف بالجحود على الأقل

وقد جعل الشّاعر مجرى الكلام في صيغة الجمع متكلّما ومخاطبا وغائبا ممّا يجعل معاني القصيدة ومناسبتها شاملة عامة بالرّغم من أنّ المعاناة الشّخصيّة واضحة فيها وذلك هو الشّعر البديع والفن الأصيل حينما ينطلق من الخاص كي يعبّر عن العام وعندما ينبثق من زمن مضى واِنقضى ليظلّ نابضا بالإحساس والمعاناة على الدّوام

وخلاصة القول فإننا نعتبر الشّاعر سعيد حيتانة أحد فحول الشّعراء التّونسيّين على مدى القرن العشرين بشهادة الكثير من الشّعراء الّذين عاصروه وبالتّالي فهو الوريث للشّاعر أحمد بن موسى الغمراسني الّذي عاصر الدّولة الحسينيّة في القرن التّاسع عشر لذلك نرجو أن تحظى أشعاره بالجمع والنّشر والدّرس كي لا يطولها الإهمال والنّسيان جاعلين من ذكراه مناسبة لتسليط الأضواء على الأدب الشّعبي كي يتبوّأ المنزلة المرموقة الّتي هو جدير بها ضمن نظرة جديدة شاملة للأدب بجميع أصنافه وأنواعه وفنونه وعهوده.